1

تَقَدَّمَتِ السَّرِيَّةُ بِالْكَامِلِ مُتَطَوِّعَةً، لَكِنَّ الْقَائِدَ اخْتَارَ ثَلَاثِينَ مِنْ أَفْضَلِ رِجَالِهِ، وَسُرْعَانَ مَا كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلِانْطِلَاقِ.

أَصَرَّ فيكس: «سَأَذْهَبُ مَعَكَ.»

أَجَابَ فيلياس: «كَلَّا، يَجِبُ أَنْ تَظَلَّ مَعَ الْآنِسَةِ عودا، تَحَسُّبًا لِأَيِّ شَيْءٍ يَحْدُثُ لِي.»

نحى فيكس مَشَاعِرَهُ تِجَاهَ فيلياس جَانِبًا، وَقَالَ: «حَسَنًا، سَأَبْقَى!» وَالْتَفَتَ إِلَى عودا.

– «لَا تَقْلَقِي يَا آنِسَةُ، مَعَنَا هُنَا أَيْضًا الكولونيل بروكتور.» وَكَانَ الكولونيل بروكتور يَجْلِسُ لِلِاعْتِنَاءِ بِجُرْحٍ فِي ذِرَاعِهِ، وَعِنْدَمَا وَجَدَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، لَوَّحَ لَهُمْ بِالنَّصْرِ بِيَدِهِ السَّلِيمَةِ.

ضَغَطَ فيلياس عَلَى يَدِ عودا بِرِفْقٍ وَتَرَكَ لَهَا حَقِيبَتَهُ الْقُمَاشِيَّةَ لِتَعْتَنِيَ بِهَا، ثُمَّ انْضَمَّ إِلَى الْجُنُودِ الَّذِينَ عَثَرُوا لَهُ عَلَى حِصَانٍ إِضَافِيٍّ لِيَمْتَطِيَهُ. وَقَبْلَ الْمُغَادَرَةِ، قَالَ فيلياس لِلْجُنُودِ: «يَا أَصْدِقَائِي، أُرِيدُ اسْتِعَادَةَ رِفَاقِنَا الْمُسَافِرِينَ عَلَى قَيدِ الْحَيَاةِ. وَكَيْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَهَمَّةُ تَسْتَحِقُّ الْوَقْتَ وَالْعَنَاءَ، سَوْفَ أُقَسِّمُ بَيْنَكُمْ مَبْلَغَ خَمْسَةِ آلَافِ دُولَارٍ بَعْدَ إِنْقَاذِ هَؤُلَاءِ السُّجَنَاءِ.»

ثُمَّ انْطَلَقُوا!

وَبَيْنَمَا كَانَتْ عودا تَنْتَظِرُ بِصَبْرٍ رُجُوعَ فيلياس وَالْجُنُودِ دَاخِلَ الْمَحَطَّةِ، كَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس يَقْطَعُ الْمَحَطَّةَ جِيئَةً وَذَهَابًا. وَفَجْأَةً، دَوَّى صَوْتُ صَافِرَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟ وَبَدَأَ جِسْمٌ مُظْلِمٌ يَظْهَرُ مِنْ بَيْنِ الثُّلُوجِ، إِنَّهَا الْقَاطِرَةُ! كَانَ سَائِقُ الْقِطَارِ قَدِ اسْتَعَادَ وَعْيَهُ وَاكْتَشَفَ مَا حَدَثَ، فَقَادَ الْعَرَبَةَ عَائِدًا بِهَا إِلَى حِصْنِ فورت كيرني.

شَعَرَ الرُّكَّابُ بِالسَّعَادَةِ الْغَامِرَةِ لِرُؤْيَةِ عَرَبَةِ الْقِيَادَةِ، فَالْآنَ يُمْكِنُهُمْ مُوَاصَلَةُ طَرِيقِهِمْ إِلَى أوماها.

انْدَفَعَتْ عودا منَ الْمَحَطَّةِ وَسَأَلَتِ الْمُحَصِّلَ: «هَلْ سَيَتَحَرَّكُ الْقِطَارُ الْآنَ؟»

أَجَابَ: «فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ يَا سَيِّدَتِي.»

قَالَتْ: «وَلَكِنَّ السُّجَنَاءَ لَمْ يَعُودُوا بَعْدُ، يَجِبُ أَنْ نَنْتَظِرَهُمْ.»

– «أَخْشَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مُمْكِنًا، يَجِبُ أَنْ نَتَحَرَّكَ فَوْرًا؛ فَلَقَدْ تَأَخَّرْنَا بِالْفِعْلِ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ عَنْ مَوْعِدِنَا.»

قَالَتْ: «لَنْ أَذْهَبَ، وَأَنْتَ أَيْضًا يَجِبُ أَلَّا تَذْهَبَ، هَذَا مُخْزٍ.»

قَالَ: «يُؤْسِفُنِي أَنَّكِ تَشْعُرِينَ بِهَذَا يَا سَيِّدَتِي، وَلَكِنَّ مَعَنَا رُكَّابًا آخَرِينَ يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ بِشَأْنِهِمْ أَيْضًا.»

كَانَ الرُّكَّابُ الْآخَرُونَ — بَعْضُهُمْ مُصَابٌ وَالْبَعْضُ الْآخَرُ مُعَافًى — قَدْ صَعِدُوا عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ وَعَادُوا إِلَى عَرَبَاتِهِمْ. وَدَعَتْ عودا الكولونيل الَّذِي قَدْ قَرَّرَ مُوَاصَلَةَ رِحْلَتِهِ، وَشَكَرَتْهُ لِمَا قَدَّمَهُ مِنْ مُسَاعَدَةٍ فِي مُوَاجَهَةِ قَاطِعِي الطَّرِيقِ.

صَعِدَ الْمُحَقِّقُ فيكس أَيْضًا عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ، وَلَكِنْ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ قَرَّرَ الْبَقَاءَ مَعَ عودا، كَمَا وَعَدَ. تَصَاعَدَ الْبُخَارُ مِنْ مُقَدِّمَةِ الْقِطَارِ وَهُوَ يَسِيرُ مُبْتَعِدًا، وَكَانَتِ الثُّلُوجُ لَا تَزَالُ تَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ.

حَلَّ الْمَسَاءُ، وَكَانَ السُّجَنَاءُ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، وَكَانَتْ عودا تَتَمَشَّى بِطُولِ الرَّصِيفِ بَيْنَمَا جَلَسَ فيكس سَاكِنًا قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ، وَمَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، اشْتَدَّتْ بُرُودَةُ الطَّقْسِ بِشِدَّةٍ. وَلَكِنْ كَانَ خَيَالُ عودا قَدْ سَبَحَ بَعِيدًا وَهِيَ تُفَكِّرُ فِيمَا حَدَثَ لِفيلياس وَباسبارتو؟ وَفِي الْفَجْرِ، سُمِعَ دَوِيُّ طَلْقٍ نَارِيٍّ أُطْلِقَ كَإِشَارَةٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، وَانْدَفَعَتْ عودا إِلَى الرَّصِيفِ، وَوَقَفَ فيكس إِلَى جَانِبِهَا. إِنَّهُمَا فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِمَا! فيلياس وَباسبارتو عَادَا سَالِمَيْنِ!

عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمَحَطَّةِ، أَعْطَى فيلياس الْمُكَافَأَةَ لِلْجُنُودِ الْبَوَاسِلِ الَّذِينَ سَاعَدُوهُ، فِي حِينِ نَظَرَ باسبارتو حَوْلَهُ بَحْثًا عَنِ الْقِطَارِ؛ فَقَدْ كَانَتْ رِحْلَةُ سَيِّدِهِ أَكْثَرَ مَا يَشْغَلُ بَالَهُ.

فَسَأَلَ: «أَيْنَ الْقِطَارُ؟»

قَالَتْ عودا: «لَقَدْ رَحَلَ، غَادَرَ بِالْأَمْسِ بِدُونِنَا.»

صَاحَ باسبارتو: «لَا يُمْكِنُ! مَتَى سَيَصِلُ الْقِطَارُ التَّالِي؟»

أَجَابَتْ: «لَيْسَ قَبْلَ هَذَا الْمَسَاءِ.»

قَالَ فيلياس فوج بِهُدُوءٍ: «حَسَنًا.»

كَانَ باسبارتو غَاضِبًا بِشِدَّةٍ، فَالْمَعْرَكَةُ مَعَ قَاطِعِي الطَّرِيقِ قَدْ تَكُونُ كَلَّفَتْ سَيِّدَهُ الرِّهَانَ!

فَسَأَلَ: «مَاذَا سَنَفْعَلُ الْآنَ؟»

لَمْ يَتَفَوَّهْ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ يُدْرِكُ مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلُوا، فَلَا يُمْكِنُهُمُ انْتِظَارُ الْقِطَارِ، وَلَكِنْ هَلْ هُنَاكَ حَلٌّ آخَرُ؟

وَعَلَى مَضَضٍ، تَحَدَّثَ الْمُحَقِّقُ فيكس، رَغْمَ كُرْهِهِ لِهَذَا؛ فَلَقَدْ وَعَدَ بِمُسَاعَدَةِ باسبارتو لِكَيْ يَظَلَّ فِي الْمَسَارِ الصَّحِيحِ، كَمَا أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتْ عَوْدَتُهُمْ إِلَى إِنْجِلْتِرَا أَسْرَعَ، كَانَ إِلْقَاءُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ أَسْرَعَ؛ فقَالَ فيكس: «قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ حَلٌّ!» نَظَرَ الْجَمِيعُ إِلَيْهِ، «لَيْلَةَ أَمْسِ، أَخْبَرَنِي رَجُلٌ أَنَّ هُنَاكَ مِزْلَجَةً بِشِرَاعٍ يُمْكِنُ أَنْ تُوَصِّلَنَا إِلَى أوماها، وَمِنْ هُنَاكَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَلْحَقَ بِالْقِطَارِ الْمُتَّجِهِ إِلَى نيويورك.»

فَقَالَ باسبارتو مُتَعَجِّبًا: «إِذَنْ لَا يَزَالُ هُنَاكَ أَمَلٌ!»

قَالَ فيلياس: «لِنَرَ مَاذَا سَيَقُولُ لَنَا الرَّجُلُ صَاحِبُ الْمِزْلَجَةِ الْغَرِيبَةِ.»

كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي يَمْلِكُ الْمِزْلَجَةَ يُدْعَى مادج، وَفِي الشِّتَاءِ غَالِبًا مَا يَسْتَخْدِمُ مِزْلَجَتَهُ فِي نَقْلِ الْأَشْخَاصِ مِنْ مَحَطَّةِ قِطَارٍ لِأُخْرَى فِي الطَّقْسِ السَّيِّئِ. وَكَانَتْ الْمِزْلَجَةُ الْغَرِيبَةُ طَوِيلَةً لِلْغَايَةِ، وَبِهَا سَارِيَةٌ عَالِيَةٌ تَحْمِلُ الشِّرَاعَ، وَكَانَ بِهَا مُتَّسَعٌ لِسِتَّةِ أَفْرَادٍ.

عَقَدَ فيلياس صَفْقَةً سَرِيعًا مَعَ مادج لِإِيصَالِهِمْ إِلَى أوماها، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ أَنْ تُضْطَرَّ عودا لِلسَّفَرِ فِي الْهَوَاءِ الطَّلْقِ؛ فَسَأَلَهَا إِذَا كَانَتْ تَرْغَبُ فِي انْتِظَارِ الْقِطَارِ، وَيُمْكِنُ لِباسبارتو الْبَقَاءُ بِجَانِبِهَا، وَلَكِنَّهَا رَفَضَتْ، وَكَانَ باسبارتو سَعِيدًا بِرَفْضِهَا؛ إِذْ إِنَّهُ كَانَ لَا يَزَالُ لَا يَثِقُ فِي الْمُحَقِّقِ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرُكَهُ وَحْدَهُ مَعَ سَيِّدِهِ.

وَلَمْ يَمْضِ الْكَثِيرُ حَتَّى كَانَتِ الْمِزْلَجَةُ جَاهِزَةً، وَرَكِبَهَا الْجَمِيعُ وَتَدَثَّرُوا بِأَغْطِيَةٍ ثَقِيلَةٍ لِيَشْعُرُوا بِالدِّفْءِ.

يَا لَهَا مِنْ رِحْلَةٍ! أَسْرَعَتِ الْمِزْلَجَةُ تَشُقُّ طَرِيقَهَا عَلَى الْمُرُوجِ بِخِفَّةٍ كَمَا يَشُقُّ الْمَرْكَبُ طَرِيقَهُ فِي الْمِيَاهِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُتَجَمِّدَةً! وَكَانَتِ الرِّيَاحُ قَوِيَّةً وَفِي الِاتِّجَاهِ الْمُنَاسِبِ تَمَامًا، وَكَانَتِ الْحُقُولُ الْبَيْضَاءُ الشَّاسِعَةُ أَمَامَهُمْ لَا تَتْرُكُ مَجَالًا لِظُهُورِ الْمَنَازِلِ أَوِ الْمُدُنِ أَوِ الْقُرَى، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَقِفْ أَمَامَهُمْ أَيُّ عَائِقٍ. وَمِنْ حِينٍ لِآخَرَ، كَانُوا يَمُرُّونَ بِشَجَرَةٍ سَقَطَتِ الْأَوْرَاقُ مِنْ عَلَى أَغْصَانِهَا.

وَفَجْأَةً، رَأَى مادج أَسْطُحًا بَيْضَاءَ عَلَى بُعْدٍ؛ فَصَاحَ: «لَقَدْ وَصَلْنَا!» وَسُرْعَانَ مَا مَرَّتِ الْأَمْيَالُ الْأَخِيرَةُ الْمُتَبَقِّيَةُ وَهُرِعَ الْمُسَافِرُونَ لِلَّحَاقِ بِالْقِطَارِ. لَقَدْ نَجَحُوا!

وَصَلُوا إِلَى شيكاغو وَلَمْ يَتَبَقَّ أَمَامَهُمْ سِوَى أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً قَبْلَ انْطِلَاقِ الْبَاخِرَةِ إِلَى إِنْجِلْتِرَا، فَانْطَلَقُوا بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ. وَفِي النِّهَايَةِ ظَهَرَتْ نيويورك فِي الْأُفُقِ، وَتَوَقَّفَ الْقِطَارُ

أَمَامَ مَكْتَبِ الْبَاخِرَةِ تَمَامًا. وَلَكِنْ كَانَتِ الْبَاخِرَةُ «تشاينا» الْمُتَّجِهَةُ إِلَى ليفربول قَدْ غَادَرَتْ قَبْلَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً فَقَطْ!

صُعِقَ باسبارتو، لَا يُمْكِنُ هَذَا! لَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ فَقَطْ لِيُفَوِّتُوا السَّفِينَةَ بِفَارِقِ سَاعَةٍ إِلَّا رُبْعًا!

فَقَالَ فيلياس فوج: «لَا يُوجَدُ شَيْءٌ يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ اللَّيْلَةَ، لِنَذْهَبْ إِلَى الْفُنْدُقِ، وَسَنَكْتَشِفُ مَا عَلَيْنَا فِعْلُهُ فِي الصَّبَاحِ.»

الفصل الخامس عشر

فيلياس فوج يَجِدُ طَرِيقَهُ إِلَى ليفربول

فِي الْيَوْمِ التَّالِي، غَادَرَ فيلياس الْفُنْدُقَ بِمُفْرَدِهِ، وَكَانَ يَنْوِي الْعُثُورَ عَلَى سَفِينَةٍ تُقِلُّهُمْ إِلَى ليفربول مُبَاشَرَةً؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ دِيسَمْبِرَ وَلَمْ يَتَبَقَّ لَدَيْهِ سِوَى تِسْعَةِ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَخَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً فَقَطْ.

أَخَذَ يَتَجَوَّلُ ذَهَابًا وَإِيَابًا عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ إِيجَادَ مَرْكَبٍ لِإِيصَالِهِ. وَكَادَ أَنْ يَفْقِدَ الْأَمَلَ حَتَّى رَأَى سَفِينَةً تِجَارِيَّةً صَغِيرَةً تَقِفُ بَعِيدَةً عَنِ السُّفُنِ الْأُخْرَى، وَكَانَ الْبُخَارُ يَنْبَعِثُ مِنَ الْمَدْخَنَةِ الَّتِي تَعْلُو الْمَرْكَبَ؛ أَيْ إِنَّهَا كَانَتْ عَلَى وَشْكِ الرَّحِيلِ.

نَادَى فيلياس عَلَى قَارِبٍ لِيَأْخُذَهُ إِلَى تِلْكَ السَّفِينَةِ، وَسُرْعَانَ مَا وَجَدَ نَفْسَهُ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ «هنريتا». وَكَانَ قُبْطَانُ السَّفِينَةِ — رَجُلٌ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمْرِ خَمْسِينَ عَامًا وَلَهُ عَيْنَانِ مُسْتَدِيرَتَانِ كَبِيرَتَانِ وَشَعْرٌ أَحْمَرُ فَاتِحٌ وَلِحْيَةٌ نُحَاسِيَّةُ اللَّوْنِ — يَجْلِسُ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَكَانَ يُدْعَى أندرو سبيدي.

فَسَأَلَهُ فيلياس: «هَلْ أَنْتُمْ عَلَى وَشْكِ الْإِبْحَارِ؟»

أَجَابَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «نَعَمْ، سَنُغَادِرُ إِلَى بوردو فِي غُضُونِ سَاعَةٍ.»

– «هَلْ تُقِلُّ رُكَّابًا؟»

قَالَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «كَلَّا، لَا نُقِلُّ رُكَّابًا، نَحْنُ لَا نَحْمِلُ أَبَدًا أَيَّ رُكَّابٍ، فَهُمْ يُعِيقُونَ تَقَدُّمَنَا.»

– «هَلْ سَفِينَتُكَ سَرِيعَةٌ؟»

قَالَ الْقُبْطَانُ: «نَعَمْ، إِنَّ سُرْعَتَهَا جَيِّدَةٌ، أَقْصَى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ.»

سَأَلَهُ فيلياس: «هَلْ تَأْخُذُنِي إِلَى ليفربول؟ أَنَا وَثَلَاثَةَ رُكَّابٍ آخَرِينَ.»

– «كَلَّا.»
– «كَلَّا؟»
أَصَرَّ الْقُبْطَانُ سبيدي: «كَلَّا، قُلْتُ إِنَّنَا سَنَذْهَبُ إِلَى بوردو، وَلِهَذَا سَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ.»
حَاوَلَ فيلياس مَعَهُ بِكُلِّ السُّبُلِ؛ فَحَاوَلَ شِرَاءَ الْقَارِبِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ لِلْقُبْطَانِ مُقَابِلَ تَوْصِيلِهِمْ، وَلَكِنْ رَفَضَ الْقُبْطَانُ كُلَّ عُرُوضِهِ. حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ فيلياس قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ شِرَاءِ طَرِيقِهِ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يَكُنِ الْمَالُ هُوَ الْحَلَّ.
سَأَلَهُ فيلياس: «هَلْ تَأْخُذُنَا إِلَى بردودو مُقَابِلَ أَلْفَي دُولَارٍ لِلْفَرْدِ؟»
حَكَّ الْقُبْطَانُ سبيدي رَأْسَهُ وَقَالَ: «أَنْتُمْ أَرْبَعَةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»
أَجَابَ فيلياس: «هَذَا صَحِيحٌ.»
– «هَلْ أَنْتُمْ جَمِيعًا جَاهِزُونَ لِلسَّفَرِ؟» فَأَوْمَأَ فيلياس بِرَأْسِهِ بِالْإِيجَابِ.
أَكْمَلَ الْقُبْطَانُ: «حَسَنًا، سَنُغَادِرُ فِي التَّاسِعَةِ، فَإِذَا كُنْتُمْ هُنَا، فَسَنَصْطَحِبُكُمْ مَعَنَا إِلَى بوردو.»

وَبِذَلِكَ كَانَ لَدَى فيلياس نِصْفُ سَاعَةٍ فَقَطْ لِيُسْرِعَ إِلَى الْفُنْدُقِ وَيُحْضِرَ عودا وَباسبارتو وَفيكس، ثُمَّ يَعُودَ إِلَى السَّفِينَةِ «هنريتا». وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى فيلياس فوج مُطْلَقًا وَلَوْ ذَرَّةً وَاحِدَةً مِنَ الْقَلَقِ! تَمَكَّنَ الرُّكَّابُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْقَارِبِ قَبْلَ الْمَوْعِدِ بِثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ. لَمْ يَكُنْ باسبارتو يَشْعُرُ بِالِارْتِيَاحِ بَعْدَمَا عَلِمَ بِالْأَمْوَالِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُهَا سَيِّدُهُ لِلْعَوْدَةِ إِلَى لَنْدَنَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِلْفَوْزِ بِالرِّهَانِ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِفيكس، فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُنْفِقُ فِيهَا فيلياس مِنَ النُّقُودِ، كَانَ يَرَى مُكَافَأَتَهُ تَتَلَاشَى؛ فَفِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ، هَذِهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي يُنْفِقُهَا مِلْكٌ لِلْبَنْكِ، وَكُلَّمَا أَنْفَقَ اللِّصُّ مِنْ تِلْكَ النُّقُودِ، أَصْبَحَ الْمَبْلَغُ الَّذِي سَيُعِيدُهُ إِلَى الْبَنْكِ أَقَلَّ، وَكُلَّمَا قَلَّ هَذَا الْمَبْلَغُ، قَلَّتْ مُكَافَأَتُهُ. وَلَمْ تَرْفَعْ تِلْكَ الْأَفْكَارُ من مَعْنَوِيَّاتِهِ الَّتِي كَانَتْ مُنْخَفِضَةً بِالْفِعْلِ.

وَبِحُلُولِ ظُهْرِ الْيَوْمِ التَّالِي كَانَتْ «هنريتا» تُبْحِرُ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ. وَقَفَ فيلياس فوج عَلَى سَطْحِ قِيَادَةِ السَّفِينَةِ، وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ عَبْرَ الْمُحِيطِ الْأَطْلَنْطِيِّ، وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ الْقُبْطَانُ سبيدي قَدْ أَغْلَقَ كَابِينَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ سَعِيدًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

فيلياس فوج يَجِدُ طَرِيقَهُ إِلَى ليفربول

أَرَادَ فيلياس الذَّهَابَ إِلَى ليفربول، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ لِيَحُولَ دُونَ وُصُولِهِ إِلَى هُنَاكَ، وَكَانَ قَدْ أَخْبَرَ طَاقَمَ السَّفِينَةِ كُلَّهُ بِقِصَّتِهِ، وَعِنْدَمَا عَلِمُوا بِالْمَسَافَةِ الَّتِي قَطَعَهَا، قَرَّرُوا مُسَاعَدَتَهُ، فَتَجَاهَلُوا أَوَامِرَ الْقُبْطَانِ، وَحَدَّدُوا وُجْهَةً جَدِيدَةً لِلسَّفِينَةِ؛ نَحْوَ ليفربول.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ الْبَحْرِيَّةُ تَسِيرُ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ فِي أَيَّامِهَا الْأُولَى؛ فَكَانُوا يُحَافِظُونَ عَلَى سَيْرِ «هنريتا» بِأَقْصَى سُرْعَةٍ وَيُحْرِقُونَ الْمَزِيدَ مِنَ الْفَحْمِ. وَكَانُوا قَدْ عَبَرُوا نيوفاوندلاند وَخَرَجُوا إِلَى عُرْضِ الْبِحَارِ، وَكَانَ باسبارتو يُسَلِّي الْبَحَّارَةَ بِإِقَامَةِ اسْتِعْرَاضَاتٍ لَهُمْ، وَقَدْ جَعَلَتْ رُوحُ الدُّعَابَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْجَمِيعَ سُعَدَاءَ.

أَمْضَتْ عودا مُعْظَمَ الْوَقْتِ عَلَى السَّطْحِ مَعَ فيلياس الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يُهَدِّئَ مِنْ رُوعِهَا؛ فَكَانَتْ قَلِقَةً حَقًّا حِيَالَ مَا سَيَنْتَهِي إِلَيْهِ الْأَمْرُ.

وَفَجْأَةً تَبَدَّلَ الطَّقْسُ، فَعُبُورُ الْمُحِيطِ الْأَطْلَنْطِيِّ فِي الشِّتَاءِ يَنْطَوِي عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَخَاطِرِ؛ فَهُنَاكَ الْعَوَاصِفُ الشَّدِيدَةُ وَالْأَمْوَاجُ الْعَتِيَّةُ؛ فَفِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ الْقَارِبُ عَنْ مَسَارِهِ أَوْ تَقْلِبُهُ الْأَمْوَاجُ. وَبَدَلًا مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَى الرِّيَاحِ فِي الْإِبْحَارِ، كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْمُحَرِّكِ فَقَطْ، وَكَانَ الْفَحْمُ هُوَ مَصْدَرَ الطَّاقَةِ الْوَحِيدَ الَّذِي يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْأَمَامِ.

وَفِي السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ دِيسَمْبِرَ، صَعِدَ الْمَسْئُولُ عَنِ الْمُحَرِّكِ فِي السَّفِينَةِ إِلَى السَّطْحِ لِيُبْلِغَ فيلياس أَنَّ الْفَحْمَ قَدْ أَوْشَكَ عَلَى النَّفَادِ.

فَقَالَ فيلياس لِلرَّجُلِ: «دَعْنِي أُفَكِّرْ فِي الْأَمْرِ لِوَهْلَةٍ.»

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الِاثْنَيْنِ وَفيلياس يُفَكِّرُ مَاذَا يَفْعَلُ، ثُمَّ قَالَ: «اجْعَلِ الْمُحَرِّكَاتِ تَعْمَلُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ كَمَا هِيَ، لَقَدْ وَجَدْتُ حَلًّا. باسبارتو!»

قَفَزَ الْخَادِمُ مِنَ السَّطْحِ السُّفْلِيِّ وَوَقَفَ أَمَامَهُ، فَقَالَ لَهُ فيلياس: «مِنْ فَضْلِكَ اطْلُبْ مِنَ الْقُبْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ كَابِينَتِهِ.» فَأَوْمَأَ باسبارتو بِرَأْسِهِ فِي طَاعَةٍ.

لَمْ يَكُنِ الْقُبْطَانُ يَرْغَبُ فِي التَّحَرُّكِ مِنْ مَكَانِهِ، فَقَدْ كَانَ يَسْتَشِيطُ غَضَبًا لِأَنَّ فيلياس فوج قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى سَفِينَتِهِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرِيدُ التَّحَدُّثَ مَعَهُ، نَاهِيكَ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَلَكِنَّ باسبارتو أَصَرَّ.

صَاحَ الْقُبْطَانُ: «أَيْنَ نَحْنُ؟»

أَجَابَهُ فيلياس: «عَلَى بُعْدِ سَبْعِمِائَةٍ وَسَبْعِينَ مِيلًا مِنْ ليفربول.»

صَرَخَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «قُرْصَانٌ! لِصٌّ!»

قَالَ فيلياس: «سَيِّدِي، سَنَحْتَاجُ لِإِشْعَالِ سَطْحِ السَّفِينَةِ، فَالْفَحْمُ لَدَيْنَا يَكَادُ أَنْ يَنْفَدَ.»

قَالَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «تـ... تُحْرِقُ سـ... سَفِينَتِي؟ بِالطَّبْعِ لَا!»

بَحَثَ فيلياس فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَ رِزْمَةً كَبِيرَةً مِنَ الْأَمْوَالِ: «إِلَيْكَ هَذَا الْمَبْلَغ، إِنَّهُ كَافٍ لِشِرَاءِ قَارِبَيْنِ آخَرَيْنِ، وَسَيُعَوِّضُكَ ذَلِكَ عَنِ الْأَضْرَارِ الَّتِي سَبَّبْتُهَا لَكَ وَلِهَذَا الْقَارِبِ.»

أَخَذَ الْقُبْطَانُ سبيدي الْمَالَ بِهُدُوءٍ، وَنَسِيَ غَضَبَهُ وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ ضَغِينَةٍ تِجَاهَ فيلياس فوج؛ وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «إِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ يَدْفَعَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ لِلْوُصُولِ إِلَى ليفربول، فَيُمْكِنُنِي أَنْ أُسَاعِدَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ آخَرُ يُمْكِنُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ، كَمَا أَنَّ سَفِينَتَيْنِ سَتُوَفِّرَانِ لِي حَيَاةً كَرِيمَةً أَكْثَرَ مِنْ سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ.»

فَقَالَ سبيدي: «اعْتَبِرِ السَّفِينَةَ «هنريتا» مِلْكَكَ يَا سَيِّدُ، أَعْنِي، يَا قُبْطَانُ فوج.»

وَعَلَى مَدَارِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ أَحْرَقَ الطَّاقَمُ أَجْزَاءً مِنَ السَّفِينَةِ لِمُسَاعَدَتِهَا عَلَى مُوَاصَلَةِ رِحْلَتِهَا. وَوَصَلَ الْمُسَافِرُونَ إِلَى مِينَاءِ ليفربول، وَلَدَيْهِمْ تِسْعُ سَاعَاتٍ فَقَطْ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْمَوْعِدِ.

نَزَلَ فيلياس فوج وَعودا وَباسبارتو سَرِيعًا مِنْ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ «هنريتا» الَّتِي تَرَكُوهَا لِلْقُبْطَانِ سبيدي، وَوَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ أَخِيرًا الْأَرَاضِيَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ.

وَفِي التَّوِّ، نَزَلَ فيكس وَرَاءَهُمْ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ فيلياس.

وَسَأَلَهُ: «هَلْ أَنْتَ فيلياس فوج؟»

– «نَعَمْ.»

قَالَ فيكس وَهُوَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ مُذَكِّرَةَ الْقَبْضِ عَلَى فيلياس: «إِذَنْ أَنَا أُلْقِي الْقَبْضَ عَلَيْكَ بِاسْمِ جَلَالَةِ الْمَلِكَةِ.»

الفصل السادس عشر

خَسَارَةُ الرِّهَانِ!

كَانَ فيلياس فوج رَهْنَ الِاعْتِقَالِ فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَارِكِ مُنْذُ أَنْ أَلْقَى فيكس الْقَبْضَ عَلَيْهِ قَبْلَ بِضْعِ دَقَائِقَ، وَكَانَ مِنَ الْمُزْمَعِ إِرْسَالُهُ إِلَى لَنْدَنَ فِي غُضُونِ دَقَائِقَ.

وَعِنْدَمَا رَأَى باسبارتو فيكس يُلْقِي الْقَبْضَ عَلَى سَيِّدِهِ، حَاوَلَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَى الْمُحَقِّقِ فيكس فِي نَوْبَةِ غَضَبٍ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ رِجَالُ شُرْطَةٍ بِجَانِبِ الْمُفَتِّشِ فَمَنَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ. كَانَتْ عودا مَصْعُوقَةً مِمَّا يَحْدُثُ، وَلَمْ تَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَشَرَحَ لَهَا باسبارتو كُلَّ شَيْءٍ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّ فيكس يَظُنُّ أَنَّ فيلياس فوج هُوَ سَارِقُ الْمَصْرِفِ، وَأَوْضَحَ لَهَا كَيْفَ تَعَقَّبَهُمَا حَوْلَ الْعَالَمِ.

ثُمَّ فَكَّرَ باسبارتو: «هَلْ كُلُّ هَذَا خَطَئِي؟ مَاذَا لَوْ كُنْتُ أَخْبَرْتُ سَيِّدِي عَنْ فيكس مُنْذُ الْبِدَايَةِ؟ هَلْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَمْنَعَ اعْتِقَالَهُ؟ رُبَّمَا كَانَ سَيِّدِي سَيَسْتَطِيعُ إِقْنَاعَ فيكس بِبَرَاءَتِهِ!»

وَلَكِنْ كَانَ الْأَوَانُ قَدْ فَاتَ عَلَى الْقِيَامِ بِأَيِّ شَيْءٍ، جَلَسَ باسبارتو فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَارِكِ يَبْكِي، وَكَانَتْ عودا أَيْضًا هُنَاكَ؛ فَلَمْ يَشَأْ أَيٌّ مِنْهُمَا أَنْ يُغَادِرَ حَتَّى يَرَيَا فيلياس.

لَمْ يَعُدْ لَدَى فيلياس فوج أَيُّ فُرَصٍ أُخْرَى؛ فَكَانَ عَلَيْهِ الْوُجُودُ فِي نَادِي «ريفورم كلوب» بَعْدَ تِسْعِ سَاعَاتٍ بِالضَّبْطِ، وَكَانَتِ الرِّحْلَةُ مِنْ ليفربول إِلَى لَنْدَنَ تَسْتَغْرِقُ سِتَّ سَاعَاتٍ، وَلَكِنَّهُ الْآنَ رَهْنُ الِاعْتِقَالِ، فَلَا يُوجَدُ أَيُّ ضَمَانٍ بِأَنَّهُ سَيَصِلُ إِلَى لَنْدَنَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِتَبْرِئَةِ سَاحَتِهِ، نَاهِيكَ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ.

جَلَسَ فيلياس فوج فِي زِنْزَانَتِهِ لَا يُحَرِّكُ سَاكِنًا، وَبِالرَّغْمِ مِنْ قَسْوَةِ الْمَقْعَدِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَالْمُسْتَقْبَلِ الْغَامِضِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ، لَمْ يَبْدُ عَلَى مَلَامِحِهِ أَيُّ مَشَاعِرَ، لَقَدْ ظَلَّ

جَالِسًا فِي مَكَانِهِ، يَنْتَظِرُ ... يَنْتَظِرُ مَاذَا؟ هَلْ لَا يَزَالُ لَدَيْهِ أَمَلٌ فِي الْفَوْزِ بِالرِّهَانِ؟ حَتَّى وَهُوَ يَقِفُ خَلْفَ أَسْوَارِ السِّجْنِ؟ هَلْ لَا تَزَالُ أَمَامَهُ فُرْصَةٌ لِلْفَوْزِ؟

وَضَعَ فيلياس سَاعَتَهُ بِحِرْصٍ بِجَانِبِهِ، وَنَظَرَ يُرَاقِبُ عَقَارِبَهَا وَهِيَ تَتَحَرَّكُ. لَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، وَكَانَ الْمَوْقِفُ بِبَسَاطَةٍ كَالْآتِي: إِذَا كَانَ فيلياس فوج شَرِيفًا، فَلَقَدْ أَفْلَسَ؛ وَإِنْ كَانَ هُوَ اللِّصَّ، فَلَقَدْ قُبِضَ عَلَيْهِ.

هَلْ فَكَّر فِي الْهُرُوبِ؟ رُبَّمَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ، وَهُوَ يَسِيرُ بِبُطْءٍ فِي الزِّنْزَانَةِ، وَلَكِنْ لَا أَمَلَ فِي ذَلِكَ؛ فَالْبَابُ كَانَ مُوصَدًا بِإِحْكَامٍ وَكَانَتْ هُنَاكَ قُضْبَانٌ حَدِيدِيَّةٌ عَلَى النَّوَافِذِ. فَجَلَسَ وَأَخْرَجَ دَفْتَرَ يَوْمِيَّاتِهِ مِنْ جَيْبِهِ، وَكَتَبَ «السَّبْتُ الْمُوَافِقُ الْحَادِيَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ دِيسَمْبِرَ، ليفربول»، ثُمَّ أَضَافَ «الْيَوْمُ الثَّمَانُونَ، السَّاعَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً صَبَاحًا»، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِهِ سِوَى الِانْتِظَارِ.

دَقَّتْ سَاعَةُ مَصْلَحَةِ الْجَمَارِكِ مُعْلِنَةً الْوَاحِدَةَ ظُهْرًا، لَقَدْ كَانَتْ سَاعَتُهُ مُتَأَخِّرَةً سَاعَتَيْنِ! لَقَدْ أَضَاعُوا الْوَقْتَ فِي مَكَانٍ مَا فِي الرِّحْلَةِ، فَكَّرَ فيلياس أَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ السَّرِيعِ، لَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى لَنْدَنَ ثُمَّ إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لِلْفَوْزِ بِالرِّهَانِ. لَكِنْ لِلْأَسَفِ، كَانَ دَاخِلَ أَسْوَارِ السِّجْنِ، وَمَرَّتْ سَاعَةٌ وَنِصْفٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ ضَوْضَاءَ بِالْخَارِجِ، لَقَدْ كَانَ باسبارتو وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ قَلِيلًا.

فُتِحَ الْبَابُ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ وَرَأَى فيلياس باسبارتو وَعودا وَفيكس الَّذِي انْدَفَعَ تُجَاهَهُ.

كَانَ فيكس يَلْهَثُ وَشَعْرُهُ يَبْدُو أَشْعَثَ، وَتَهْتَهَ قَائِلًا: «يَا سَيِّدِي، سَـ... سَـ... سَـ... يِّـ... دِ... ي، سَامِحْنِي ... لَقَدْ كَانَ ... خَطَأً ... كَانَ يَبْدُو شَبَهَكَ تَمَامًا ... ذَلِكَ اللِّصُّ ... وَهُوَ ... هُـ... هُـ... و... أُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَيْهِ مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ مَضَتْ! أَنْتَ حُرٌّ!»

وَكَانَ اللِّصُّ الْحَقِيقِيُّ — وَاسْمُهُ جيمس ستراند — قَدْ أُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَيْهِ فِي أَدِنْبَرَة مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. لَقَدْ كَانَ فيلياس فوج بَرِيئًا! فَوَقَفَ فيلياس وَعَدَّلَ مِعْطَفَهُ، ثُمَّ اتَّجَهَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْمُحَقِّقِ فيكس، وَسَدَّدَ لَهُ لَكْمَةً قَوِيَّةً فِي أَنْفِهِ طَرَحَتْهُ أَرْضًا عَلَى الْفَوْرِ!

فَقَالَ باسبارتو: «أَحْسَنْتَ عَمَلًا يَا سَيِّدِي!» لَمْ يُحَرِّكْ فيكس سَاكِنًا، فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ. غَادَرَ فيلياس وَعودا وَباسبارتو مَصْلَحَةَ الْجَمَارِكِ فِي عَجَلَةٍ، وَقَفَزُوا فِي سَيَّارَةِ أُجْرَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ بِسُرْعَةٍ.

خَسَارَةُ الرِّهَانِ!

قَالَ باسبارتو وَهُوَ لَا يُخَاطِبُ أَحَدًا بِعَيْنِهِ: «هَلْ فَاتَتْنَا كُلُّ الْقِطَارَاتِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى لَنْدَنَ؟»

قَالَ فيلياس: «دَعْنِي أَتَحَرَّ الْأَمْرَ!» فَذَهَبَ إِلَى شُبَّاكِ التَّذَاكِرِ، وَسَأَلَ الْمُوَظَّفَ إِذَا كَانَ هُنَاكَ أَيُّ قِطَارٍ سَرِيعٍ سَيُغَادِرُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

أَجَابَهُ الْمُوَظَّفُ: «آسِفٌ يَا سَيِّدِي، لَقَدْ غَادَرَ مُنْذُ خَمْسِ دَقَائِقَ فَقَطْ!»

قَالَتْ عودا: «لَا، يَا إِلَهِي! لَنْ نَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى هُنَاكَ فِي الْمَوْعِدِ أَبَدًا.»

قَالَ فيلياس: «عِنْدِي فِكْرَةٌ، دَعِينِي أَتَحَرَّ إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ اسْتِئْجَارُ قِطَارٍ لِيُقِلَّنَا إِلَى لَنْدَنَ، انْتَظِرِي هُنَا.»

تَحَدَّثَ فيلياس مَعَ الْمُوَظَّفِ الَّذِي اسْتَدْعَى مُدِيرَ الْمَحَطَّةِ، وَنَاقَشَ الرَّجُلَانِ الْمَوْقِفَ، وَبَعْدَ مُرُورِ بِضْعِ دَقَائِقَ، عَادَ فيلياس إِلَى باسبارتو وَعودا.

وَقَالَ: «لَقَدِ اسْتَأْجَرْتُ قِطَارًا خَاصًّا، وَسَنُغَادِرُ فِي الثَّالِثَةِ مَسَاءً.»

وَأَخِيرًا، كَانَ الْمُسَافِرُونَ الثَّلَاثَةُ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي الْمَحَطَّةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رِحْلَتِهِمْ، وَعِنْدَمَا هَبَطَ فيلياس فوج عَلَى الرَّصِيفِ فِي لَنْدَنَ، كَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى التَّاسِعَةِ إِلَّا عَشْرَ دَقَائِقَ! لَقَدْ وَصَلَ مُتَأَخِّرًا خَمْسَ دَقَائِقَ بَعْدَ أَنْ جَابَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا. لَقَدْ خَسِرَ الرِّهَانَ!

الفصل السابع عشر

الْفَوْزُ بِالرِّهَانِ!

كَانَتْ جَمِيعُ أَبْوَابِ وَنَوَافِذِ مَنْزِلِ فيلياس فوج فِي شَارِعِ سافيل رو مُغْلَقَةً، وَالسَّتَائِرُ مُسْدَلَةً، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ إِشَارَاتٍ فِي الْمَنْزِلِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ عَادَ، لَقَدْ أَفْلَسَ بِسَبَبِ مُحَقِّقٍ سَخِيفٍ. أَفْلَسَ!

بَعْدَ أَنْ قَطَعَ كُلَّ تِلْكَ الْأَمْيَالِ، وَبَعْدَ التَّغَلُّبِ عَلَى كَافَّةِ الْأَخْطَارِ الَّتِي وَاجَهَهَا وَالْعَوَاقِبِ الَّتِي وَقَفَتْ فِي طَرِيقِهِ، ضَاعَ ذَلِكَ هَبَاءً! لَقَدْ كَانَ يَدِينُ بِبَاقِي ثَرْوَتِهِ إِلَى أَصْدِقَائِهِ فِي نَادِي «ريفورم كلوب»، وَكَانَ كُلُّ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ نُقُودٍ هُوَ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ الضَّئِيلَ الْمُتَبَقِّيَ فِي حَقِيبَتِهِ الْقُمَاشِيَّةِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، خَلَدَ فيلياس إِلَى النَّوْمِ مُثْقَلًا بِالْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ، وَكَذَلِكَ عودا الَّتِي شَعَرَتْ بِالْأَسَفِ حِيَالَ الرَّجُلِ الَّذِي أَنْقَذَ حَيَاتَهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْرِفْ مَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَفْعَلَهُ لِمُسَاعَدَتِهِ الْآنَ.

فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، عِنْدَمَا أَحْضَرَ باسبارتو لَهُ الْفَطُورَ، طَلَبَ مِنْهُ فيلياس أَنْ يُخْبِرَ عودا بِأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَرَاهَا بَعْدَ الْعَشَاءِ؛ فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَمْضِيَ يَوْمَهُ فِي التَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ شُئُونَهُ تَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ. وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ حُزْنًا وَأَثْقَلُهُمْ هَمًّا هُوَ الْخَادِمَ الْمُخْلِصَ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُمْ خَسِرُوا الرِّهَانَ بِسَبَبِ خَطَئِهِ هُوَ؛ فَلَوْ أَنَّهُ أَخْبَرَ سَيِّدَهُ بِأَمْرِ الْمُحَقِّقِ، لَكَانَ الْمَوْقِفُ قَدْ تَغَيَّرَ.

لَمْ يَسْتَطِعْ باسبارتو السَّيْطَرَةَ عَلَى مَشَاعِرِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لَكِنْ يَا سَيِّدِي! لِمَاذَا لَسْتَ غَاضِبًا مِنِّي؟ فَكُلُّ ذَلِكَ خَطَئِي.»

– «أَنَا لَا أُلْقِي بِاللَّوْمِ عَلَى أَحَدٍ يَا باسبارتو. الْآنَ، مِنْ فَضْلِكَ اذْهَبْ وَأَخْبِرِ الْآنِسَةَ عودا.»

– «أَمْرُكَ يَا سَيِّدِي.» وَانْطَلَقَ باسبارتو لِيُخْبِرَ عودا أَنَّ فيلياس يَوَدُّ التَّحَدُّثَ إِلَيْهَا بَعْدَ الْعَشَاءِ.

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ لَمْ يَتَوَجَّهْ فيلياس إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي تَمَامِ السَّابِعَةِ وَالنِّصْفِ. ولِمَاذَا يَذْهَبُ؟ لَقَدْ تَأَخَّرَ يَوْمًا عَنِ الْمَوْعِدِ، وَكَانَ الشِّيكُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ بِالْفِعْلِ، فَكَانَ كُلُّ مَا عَلَيْهِمْ هُوَ الذَّهَابَ إِلَى الْبَنْكِ لِصَرْفِ الْمَالِ؛ لِذَلِكَ ظَلَّ فيلياس فِي الْمَنْزِلِ، وَظَلَّ فِي غُرْفَتِهِ، وَاسْتَغْرَقَ فِي تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عودا. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، كَانَ باسبارتو فَقَطْ هُوَ مَنْ يَتَجَوَّلُ فِي جَمِيعِ الْأَنْحَاءِ لِيُلَبِّيَ نِدَاءَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

بَعْدَ الْعَشَاءِ، جَلَسَ فيلياس وَعودا لِيَتَحَدَّثَا، فَقَالَ فيلياس: «عودا، هَلَّا تُسَامِحِينَنِي لِاصْطِحَابِكِ إِلَى إِنْجِلْتِرَا؟ عِنْدَمَا ...»

– «مَاذَا تَقُولُ؟ لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي!»

فَتَابَعَ: «أَرْجُوكِ، دَعِينِي أُكْمِلْ حَدِيثِي، عِنْدَمَا أَحْضَرْتُكِ إِلَى هُنَا، بَعِيدًا عَنْ وَطَنِكِ، كُنْتُ رَجُلًا ثَرِيًّا، وَكَانَ بِإِمْكَانِي مُسَاعَدَتُكِ لِبَدْءِ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ، أَمَّا الْآنَ فَأَنَا مُفْلِسٌ.»

قَالَتْ عودا: «أَعْلَمُ يَا عَزِيزِي فيلياس، وَلَكِنْ كُلُّ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ هُوَ أَنْ تُسَامِحَنِي لِأَنَّنِي كُنْتُ جُزْءًا مِنْ ذَلِكَ الدَّمَارِ الَّذِي لَحِقَ بِكَ؛ فَلَقَدْ كَانَ خَطَئِي لِأَنَّكَ اضْطُرِرْتَ لِإِنْقَاذِي.»

– «هَذَا هُرَاءٌ، لَقَدْ كُنْتِ بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَمَانِ، وَهَا أَنْتِ ذِي آمِنَةٌ الْآنَ.»

فَقَالَتْ: «هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ مَاذَا سَيَحْدُثُ لَكَ؟»

نَظَرَ فيلياس إِلَى الْفَتَاةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تَجْلِسُ أَمَامَهُ وقال: «لَيْسَ لَدَيَّ أَصْدِقَاءُ حَقِيقِيُّونَ، وَلَا عَائِلَةٌ، وَلَكِنَّنِي سَأَكُونُ عَلَى مَا يُرَامُ.»

فَقَالَتْ عودا: «حَسَنًا، إِذَا قَبِلْتَ بِي زَوْجَةً لَكَ، فَسَأَكُونُ عَائِلَتَكَ، وَيُمْكِنُنَا مُوَاجَهَةُ الْمُسْتَقْبَلِ مَعًا.»

نَهَضَ فيلياس وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاذَا يَقُولُ، فَقَطْ لَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَارْتَجَفَتْ شَفَتَاه، وَلَمْ تَتَفَوَّهْ عودا بِكَلِمَةٍ، بَلْ وَقَفَتْ تَنْتَظِرُ أَنْ يَتَحَدَّثَ هُوَ.

فَقَالَ: «إِنَّنِي أُحِبُّكِ حَقًّا! نَعَمْ، بِحَقِّ السَّمَاءِ إِنَّنِي أُحِبُّكِ! لِنَتَزَوَّجْ.» وَأَمْسَكَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِيَدِ الْآخَرِ بِقُوَّةٍ وَتَشَابَكَتْ أَيدِيهِمَا.

دَخَلَ باسبارتو إِلَى الْغُرْفَةِ، وَرَأَى كِلَيهِمَا يَبْتَسِمُ فِي سَعَادَةٍ.

قَالَ فيلياس: «سَنَتَزَوَّجُ! هَلْ تَظُنُّ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ تَأَخَّرَ لِلتَّحَدُّثِ إِلَى الْكَاهِنِ فِي أَبْرَشِيَّةِ ماريليبون؟»

سَأَلَ باسبارتو: «هَلْ تَرْغَبَانِ فِي عَقْدِ الزَّوَاجِ غَدًا، يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ؟»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ، غَدًا.»

وَرَدَّدَتْ عودا: «نَعَمْ.»

فَأَطْلَقَ باسبارتو سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ.

هُرِعَ باسبارتو عَائِدًا إِلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ حَيْثُ كَانَ فيلياس وَعودا يَنْتَظِرَانِهِ.

وَقَالَ وَهُوَ يَلْهَثُ: «الزَّوَاجُ ... مُسْتَحِيلٌ غَدًا.»

– «مَا الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ؟»

– «غَدَ ... غَدًا هُوَ يَوْمُ الْأَحَدِ.»

أَصَرَّ فيلياس: «كَلَّا، إِنَّهُ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ.»

قَالَ باسبارتو: «كَلَّا فَالْيَوْمَ هُوَ ... هُوَ السَّبْتُ.»

ثُمَّ جَذَبَ فيلياس مِنْ يَاقَتِهِ وَدَفَعَهُ مَعَهُ، وَقَفَزَا فِي سَيَّارَةِ أُجْرَةٍ، وَكَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى الثَّامِنَةِ وَالنِّصْفِ مِنْ مَسَاءِ يَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ دِيسَمْبِرَ، وَكَانَ لَدَى فيلياس فوج خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً فَقَطْ لِلْوُصُولِ إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب».

جَلَسَ شُرَكَاءُ فيلياس فوج فِي لُعْبَةِ البريدج فِي الْقَاعَةِ الْكُبْرَى فِي نَادِي «ريفورم كلوب» يُرَاقِبُونَ السَّاعَةَ، وأَخَذُوا يَنْظُرُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَحَاوَلُوا تَمْضِيَةَ الْوَقْتِ فِي قِرَاءَةِ الصُّحُفِ، وَبِالطَّبْعِ كَانَ مِحْوَرُ حَدِيثِ الصُّحُفِ هُوَ فيلياس فوج؛ لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الصَّعْبِ تَجَنُّبُ الْمَوْضُوعِ!

قَالَ توماس: «حَسَنًا أَيُّهَا السَّادَةُ، لَدَى فيلياس رُبْعُ سَاعَةٍ فَقَطْ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْمَوْعِدُ الْمُحَدَّدُ، هَلْ تَظُنُّونَ أَنَّهُ سَيَنْجَحُ؟»

فَقَالَ أندرو: «لَوْ كَانَ قَدِ اسْتَقَلَّ الْقِطَارَ الَّذِي يَنْطَلِقُ فِي تَمَامِ السَّابِعَةِ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً مِنْ ليفربول، لَكَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى هُنَا بِالْفِعْلِ؛ أَعْتَقِدُ أَنَّنَا رَبِحْنَا.»

قَالَ صموئيل: «لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَيْنَا اسْتِعْجَالُ الْأُمُورِ الْآنَ، فَفيلياس دَائِمًا يَصِلُ فِي مَوْعِدِهِ الْمُحَدَّدِ تَمَامًا.»

قَالَ توماس: «لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ تَزَالُ كَمَا هِيَ؛ فَهَذِهِ الرِّحْلَةُ بِأَكْمَلِهَا كَانَتْ نَوْعًا مِنَ الْمُقَامَرَةِ، وَالتَّأْخِيرُ لِمُدَّةِ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى فُرْصَتِهِ فِي الْعَوْدَةِ فِي مَوْعِدِهِ الْمُحَدَّدِ.»

أَصَرَّ أندرو: «لَقَدْ خَسِرَ أَيُّهَا السَّادَةُ، لَقَدْ خَسِرَ؛ فَالْبَاخِرَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَتْنِهَا هِيَ «تشاينا»، وَأَنَا أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى مَتْنِهَا. وَفِي ظَنِّي أَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ عَلَى الْأَقَلِّ عِشْرِينَ يَوْمًا.»

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى الثَّامِنَةِ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً، فَقَالَ رالف: «لَمْ يَتَبَقَّ سِوَى خَمْسِ دَقَائِقَ، أَعْتَقِدُ أَنَّ أندرو سَيَصْرِفُ الشِّيكَ مِنَ الْبَنْكِ غَدًا.»

نَظَرَ الرِّجَالُ الْخَمْسَةُ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَكَانُوا جَمِيعًا يَشْعُرُونَ بِالْقَلَقِ، وَحَاوَلُوا الْتِقَاطَ أَوْرَاقِهِمْ وَإِنْهَاءَ الْجَوْلَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَيٌّ مِنْهُمْ أَنْ يُبْعِدَ نَاظِرَيْهِ عَنِ السَّاعَةِ.

بَدَأَتِ الثَّوَانِي فِي الْعَدِّ التَّنَازُلِيِّ: خَمْسُونَ، وَاحِدٌ وَخَمْسُونَ، اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ. وَفِي الْخَامِسَةِ وَالْخَمْسِينَ، سَمِعُوا صَوْتَ جَلَبَةٍ عَالِيَةٍ بِالْخَارِجِ تَبِعَهَا تَصْفِيقٌ، وَوَقَفَ الرِّجَالُ الْخَمْسَةُ، وَفِي الثَّانِيَةِ السَّابِعَةِ وَالْخَمْسِينَ، فَتَحَ فيلياس فوج بَابَ الْقَاعَةِ الْكُبْرَى، وَقَالَ: «هَأَنَذَا أَيُّهَا السَّادَةُ!»

لَقَدِ اسْتَطَاعَ فيلياس فوج السَّفَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا، وَفَازَ بِالرِّهَانِ، وَلَكِنْ كَيْفَ؟ أَيْنَ سَقَطَ ذَلِكَ الْيَوْمُ مِنْ حِسَابَاتِهِ؟ لَا سِيَّمَا بِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ يَحْرِصُ بِشِدَّةٍ عَلَى مُرَاقَبَةِ الْوَقْتِ. يَبْدُو أَنَّ فيلياس وَباسبارتو قَدْ نَسِيَا وَضْعَ الْمَنَاطِقِ الزَّمَنِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي عَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُمَا عِنْدَمَا سَافَرَا إِلَى الشَّرْقِ، كَانَا يَرْبَحَانِ سَاعَةً هُنَا وَهُنَاكَ، وَعِنْدَمَا عَادَا إِلَى لَنْدَنَ كَانَ لَدَيْهِمَا يَوْمٌ كَامِلٌ! وَلَوْ كَانَتْ سَاعَتُهُمَا تُشِيرُ إِلَى الْأَيَّامِ أَيْضًا بَدَلًا مِنَ السَّاعَاتِ فَقَطْ، لَأَدْرَكَا هَذَا!

إِذَنْ لَمْ يَخْسَرْ فيلياس ثَرْوَتَهُ، وَكَانَ مَسْرُورًا بِذَلِكَ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ سُؤَالٌ آخَرُ يَدُورُ بِذِهْنِهِ «هَلْ لَا تَزَالُ عودا تُوَافِقُ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْهُ؟»

فَقَالَتْ هِيَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَيَّ أَنَا أَنْ أَسْأَلَكَ هَذَا السُّؤَالَ، الْآنَ وَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتَ ثَرِيًّا مَرَّةً أُخْرَى، هَلْ لَا تَزَالُ تَرْغَبُ فِي الزَّوَاجِ بِي؟»

فَأَجَابَهَا: «عَزِيزَتِي عودا، لَوْلَاكِ مَا كَانَ لَدَيَّ أَيُّ أَمْوَالٍ، إِذَا لَمْ تَطْلُبِي مِنِّي أَنْ أَتَزَوَّجَكِ، لَمْ يَكُنْ باسبارتو لِيَذْهَبَ لِرُؤْيَةِ الْكَاهِنِ.»

فَقَالَتْ: «يَا إِلَهِي، عَزِيزِي فيلياس، كَمْ أَنْتَ رَائِعٌ!»

بَعْدَ يَوْمَيْنِ، كَانَ فيلياس وَعودا قَدْ تَزَوَّجَا، وَاسْتَمَرَّ باسبارتو فِي عَمَلِهِ خَادِمًا لَهُمَا، وَكَانَ سَعِيدًا فِي وَظِيفَتِهِ.

لَقَدْ فَازَ فيلياس فوج بِالرِّهَانِ، وَقَامَ بِجَوْلَةٍ رَائِعَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ؛ فَقَدْ رَكِبَ الْفِيلَ، وَاشْتَرَى قَارِبًا، وَاسْتَقَلَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْقِطَارَاتِ، وَأَبْحَرَ عَلَى مَتْنِ الْعَدِيدِ مِنَ الْبَوَاخِرِ، وَحَظِيَ بِمُغَامَرَةٍ رَائِعَةٍ. فَمَاذَا رَبِحَ مُقَابِلَ عَنَائِهِ؟ حَسَنًا، لَقَدْ فَازَ بِامْرَأَةٍ رَائِعَةٍ، جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ فِي حَيَاتِهِ، أَوَلَيْسَ ذَلِكَ كَافِيًا لِأَيِّ رَجُلٍ صَالِحٍ؟


هنداوي